كان في وسعه أن يفعل أكثر من ذلك؟ وكان يعلم أن الإعصار سينقضّ، قريباً أو بعيداً، ربّما بصبيب يجعل السفينة تميل وتجنح، وربّما بقطرات صغيرة رقيقة، برذاذٍ لا ضرر منه. وبانتظار ما سيكون تقدّم بخطوة واثقة وسط رعيّته المتململة. وإذ كانت الأنظار متشبّثة به والأصوات تتضرّع إليه وتناديه فقد اكتفى بأن أغدق على الجميع الأقوال نفسها، وفي بعض الأحيان نظراتِ تعاطُفٍ متعاليةً.

وقادته خطاه ذات لحظة إلى «ماني» مُتهَيِّئاً لتوجيه كلمة التشجيع إليه. غير أن ابن (بابل) هو الذي ناداه:.

ـ أتكون الرجل الوحيد الذي يشاطرني دَعَتي على هذا المتن؟.

بدا في عَيْنَي الربّان نوع من الحيرة والتردُّد. فقد جعل انقلاب الأدوار هذا فجأة من تحصيل الحاصل جميع العبارات التي كانت جاهزة في ذهنه.

ـ ها هي ذي أقوال تشجيع وتشريف! مَنْ تكون أيها المسافر الكريم؟.

كان اسم هذا الشخص قد قيل له كما قيل اسم كل من المسافرين العشرين الآخرين، بيد أن مثل هذاالسؤال كان مفروضاً فيه أن يُعيد الهيبة والسطوة إلى نفس الرجل القائد.

ولم يتوانَ «ماني» عن تقديم نفسه.

ـ أحمل رسالة وعليّ نشرها في (الهند)، وهذه السفينة تقودني إليها، ولن يقطع رحلتي أيّ إعصار، ولا أيّة صخرة بحرية، ولا أيّ حوت، ولا أيّة عاصفة. هكذا هو الأمر. وليس في مقدور البحر شيء.

ـ يا لَلسّعادة بسماع رجل بمثل هذه الثقة في مثل هذه الليلة! كثيراً ما يقال إن البحر قتّال؛ وأما أنا فلم أَخَفْ منه يوماً. وعندما يحين حيني فسيكون ذلك في بيتي في (شاراكس) صريعَ حُمّى لعينةٍ ما. وأما فوق الماء فأظلّ واقفاً وأبصق على الأخطار وأعلم أنه ما من شيء يمكن أن يُصيبني.